وصل الأربعين ، ولاختصاصه بالشّيخ الزاهد المجاهد المرحوم أبي يعقوب يوسف بن سليمان بتصريفه له في الأشغال ، وما حرّ به فيه من الأمانة في الأعمال ، ولعقله الراجح ، وبما حباه الله به من عفاف الجوارح ، والاقتناع بالكفاف وسياسة النظر في المصالح . وممن أصحب معه من الحفّاظ [147] عبد الله بن يعقوب ، وعمر بن تيمصلت ، ويعيش الجدميوي ، وعبد الوهاب ، وأبو العيش من أهل كومية وزيد بن عبد الرحيم من جدميوه ، وحمزة بن عبد الرحيم من صنهاجة ، ويحيى بن أبي بكر ، ومحمد بن عمران ، ومحمد بن عيسى ، ومحمد بن تَيغلشت . ووجهوا معه عسكراً من العرب لحماية إشبيلية وأنظارها ، وأمروا بأربعةٍ من الطبول بأربعة فرسان يضربونها له إعلاماً برفعته عندهم من يوم خروجه من الحضرة واحتفلوا به وساووه في رتبه وخلطوه بأنفسهم وجعلوه في أبناء أشياخ الجماعة من أنفسهم رعاية لأبيه وللصهر المتصل بذويه ، فتحرك من حضرة مراكش في غرة جمادى الآخرة من سنة إحدى وستين المؤرخة وقد عقدت له في مجلس الأمر العزيز رايتان برز بهما من دار الخلافة على وسط أسواق مراكش ودبارهم وطرقها الى باب فاس[1] مستقبلاً طريق الأندلس ، أمر له ولجميع من صحبه من عسكر وسائر في جملته بالعلوفات والمواساة في المراحل ، والرفق بالرواحل ، حتى وصل البحر ، ووصل اليه في المجاز بقصر مصمودة الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي إسحاق بن[2] جامع صاحب سبتة في ذلك التاريخ بقطعتين من قطع البحر أجازوه هو فيها وأصحابه وحفاظه الى جزيرة طريف[3] برأيه وبما

(1) باب فاس : أحد أبواب مدينة مراكش وهي كما ترى متجه نحو الأندلس كاشارة إلى أن المتجه للأندلس لا بد أن يأخذ طريقه على مدينة فاس . انظر التعليق رقم 3 ص 90 - ابن الزيات التشوف، ص 223 - 231 - 299

(2) من أسرة ابن جامع الشهيرة، وهو أحد أخوة ادريس ابن جامع وقد علمنا انهم نكبوا في الأخير، وأقاموا مغربين بمدينة ماردة، راجع التعليق رقم 2 ص 157 ورقم 4 صفحة 179

(3) طريف (TARIFA) أولّ نقطة من جزيرة الأندلس تسامت قصر مصمودة (القصر الصغير أو قصر المجاز) وجزيرة طريف تقع في الجنوب الغربي من الجزيرة الخضراء.

Huici: 224 - 225.

نفذ له به الأمر العالي في حسن رتبة ، ثم صار الى مدينة إشبيلية على ذلك [148] الترتيب ، والظهور المصحوب ، الملتزم بالصلاة والأذان والتثويب ، الى أن بات على مقربةٍ من إشبيلية ، فخرج اليه حفاظها وأجنادها وبَرَزوا له ومعهم أبو داود يلول بن جلداس[1] وأبو عبد الله بن أبي سعيد المعلم ، وأبو العلاء بن عزون شيخ القواد ، وأشياخ إشبيلية وأهلها والتقَوْا به ودخلوا معه مسرورين بقدومه ، متبركين به في حديثه وفي نديمه ، شاكرين الله تعالى والأمير الأجل أبا يعقوب أن خصهم به وكرمهم بتكريمه ، وتدافعت الخيل أمامه ، واجتمعوا معه ووفوه سلامَه ، ووقروا مجلسه وكلامه ، ودخل إشبيلية ضحوة يوم الخميس مفتتح رجب الفرد من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة، وبعد ثلاثة أيام من وصوله إلى إشبيلية سافر مع الحفاظ الواصلين معه الى قرطبة للقاء السيد الأسنى أبي سعيد بها والسلام عليه ، فكان ما أراده ، وأقام عنده ثمانية أيام تحت بر واكرام ، وودعه وانصرف إلى إشبيلية ، وضربت جملة ذميمة من نصارى شنترين - أعادها الله - على نظر طلياطة[2] فجهز في أتباعهم الحفاظ الواصلين معه وأبا العلاء بن عزون في جند إشبيلية وجملة من العرب الواصلين معه فادركوهم ، وأنقذوا الغنائم منهم وهزموهم وغزوهم واستاقوا من سلبهم مائة فرس وجملة أعلاج ، وعرف الأمير بهذا الفتح فشكر [149] اجتهاده وجهاده

وصول السيد أبي إبراهيم إسماعيل الى إشبيلية والياً

وأقام على شغله بإشبيلية منفرداً الى أن وصل السيد الأسنى أبو إبراهيم إسماعيل بن الخليفة أمير المؤمنين والياً على إشبيلية في أول ذي الحجة من سنة إحدى وستين وخمس مائة المؤرخة . وأمر السيد الأسنى أبو سعيد بن

(1) كتب في المخطوط جلدان باسقاط السين.

(2) طلياطة (Tejada - Tablada) تقع غرب إشبيلية على مقربة من طريانة وفي الجنوب الغربي لمدينة لبلة

الروض المعطار ص 128 - 129 Huici: 164.

الخليفة أمير المؤمنين بالارتحال عن قرطبة في هذه الأيام والمشي الى الحضرة العلية مراكش، فخرج من قرطبة مُبادراً للأمر الذي أمر به، وخطر على إشبيلية في اليوم العاشر من ذي القعدة من سنة إحدى وستين المؤرخة والتقى بأخيه السيد أبي إبراهيم بقصر مصمودة، وخرج الشيخ الحافظ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم من إشبيلية في هذه الأيام للقاء السيد أبي إبراهيم إلى جزيرة طريف فالتقى به فيه فانصرف في صُحْبته بها وشغل العسكرية على يديه حارٍ تقييده وتنفيذ الأمور بوساطته ترتسم حدوده، وهو مؤمل، ولكل بشر ورفعة مؤهل والسيد المذكور يختص به غاية الاختصاص، ويشتمل عليه بالبرد والود والاخلاص.

(ولاية أبي عبد الله بن إبراهيم بغرناطة وبقية أخباره)

إلى أن وصله الأمر العزيز بولاية مدينة [150] أغرناطة في العشر الأواخر من شعبان من سنة اثنتين وستين فنظر في الحركة إليها مع أصحابه وحفاظه الواصلين معه من الحضرة، فخرج إليها من اشبيلية في اليوم الثاني من شهر رمضان المعظم من سنة اثنتين وستين وخمس مائة المؤرخة وأقام بأغرناطة والياً سعيداً مجتهداً. ونازل حصن (لسة)[1] على قرب من وادي اش[2] وفتحه في نزوله عليه في يومه، ونزل جميع من كان فيه في داخله من النصارى وانصرف إلى اغرناطة غازياً، وعرف بالفتح حضرة الأمير الأعدل أبي يعقوب رضي الله عنه، فراجعه بالشكر على اجتهاده وجهاده واستمرت إقامته باغرناطة والياً إلى شهر جمادى الأولى الموافق لشهر دجنبر العجمي[3] من عام

(1) لسة (Labas) تتوسط بين مدينة غرناطة ومدينة وادي آش كما يقول ابن صاحب الصلاة ص 182 وينسب إليها عدد من العلماء. ابن الأبار التكملة رقم 1597 - 1801 Huici page 231

(2) وادي آش (Gaudix): مدينة تقع شمالي مدينة غرناطة قريبة منها تطرد حولها الأنهار والمياه ينحط نهرها من جبل شلير، وهو في شرقها وهي على ضفته.
الروض المعطار ص 192 - 193: شكيب ارسلان: الحلل السندسية أول ص 126

(3) جمادى الأولى توافق يناير - يبراير 1169

أربعة وستين وخمس مائة، ونهض بالاستدعاء الكريم هو وجميع الولاة بالأندلس والسيدان أبو ابراهيم وأبو اسحق ابراهيم صاحبا إشبيلية وقرطبة إلى حضرة مراكش حرسها الله وأقام فيها بقية عام أربعة وستين المؤرخة وأمّهر إلى السيد الأعلى أبي حفص أدام الله تأييده على ابنته، وتمادت إقامته بمراكش إلى أول شهر ذي القعدة من عام خمسة وستين، وسافر في صحبة السيد الأعلى أبي حفص غازياً في الغزوة المنْصورة العظيمة المظفرة إلى ابن مردنيش بمرسية، ثم بعثه السيد المذكور إلى مدينة بسطة مع عسكر [151] موفور من الموحدين أعزّهم الله، ففتح الله على يديه بسطة ومهدها وانصرف إلى السيد ظافراً وأقام معه في هذه الغزوة السعيدة إلى أن انصرف السيد الأعلى وانصرف بانصرافه إلى إشبيلية وأمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه كما أجاز إلى الأندلس في عام ستة وستين وخمس مائة واستقر بإشبيلية في حضرة الخليفة أمير المؤمنين أبي يعقوب رضي الله عنه. واغرناطة في هذه المدة كلها تحت حكمه وبيده، فيها رجاله وعياله، وأبو محمد بن يركوكان[1] ينظر في أشغال الموحدين بها ويمسك قصبتها بهم على أحسن حال، وحين استقراره باشبيلية نهض السيد الأسنى أبو سعيد إلى اغرناطة والياً عليها بالأمر عوضه، ووصل رجاله وعماله منها إلى إشبيلية. ثم قدمه أمير المؤمنين رضي الله عنه على تمييز الحفاظ أجمع أول شهر ربيع الأول من عام سبعة وستين وخمس مائة، وحضر الغزوة الكبرى مع أمير المؤمنين إلى وبذة ببلاد النصارى، وحضر غزوة النصراني الطاغي أبي بردع المسمى بشان موش[2]

(1) لم نهتد للتعريف بأبي محمد هذا نسبا ولم يرد ذكره عند ابن صاحب الصلاة إلا مرة واحدة، وقد يكون أصل الكلمة (يركان) ويكون من أولاد الشيخ أبي عمران بن موسى بن يركان البيذق ص 109

(2) يعرف أحياناً بالقومس الأحدب وأحياناً بأبي بردعة وأحياناً باسم شان موش، وقد كثر الحديث حول التعريف بهذا القائد، وتحدثت بعض المخطوطات المسيحية عن قائد من قادة أملة أيام الموحدين كان يسمى (Sancho Jimeno) كان لقي مصرعه في كركوى، ولقب الأحدب إما أنه كان كذلك أو من قبيل النبز بالألقاب، ولقب بأبي بردعة لأن له - على ما قيل - بردعة من الحرير مسوحة بالذهب مكللة بأصناف الجوهر...

في صحبة السادات والشيخ المرحوم أبي حفص، وناب في هذه الغزوات كلها المناب الحميد والجدّ السعيد ثم لازمته زمانه من الاعتلال طالت به مدة عام ونصف، فتوفي عفى الله عنه ورحمه في السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من عام [152] تسعة وستين وخمس مائة، وصلى عليه أمير المؤمنين أبو يعقوب رضي الله عنه وشيّع جنازته السادات ودفن بروضة الأمراء خارج باب جهور من إشبيلية وله من السن ستة وثلاثون عاماً، وكان من أحد علية أبناء الجماعة في الرياسة والسياسة، يحفظ القرآن برواياته، و(موطا المهدي)[1]، وعقائده[2]، مع مشاركة في الأدب ومطالعة على كتب التواريخ وهمة عالية في الكتب واقتنائها وانتساخها حتى اجتمعت له منها خزانة عظيمة عالية القدر، إلى ما كان عليه رحمه الله من وقار وهيبة ووفاء لأصحابه في الحضور منهم والغيبة، مع انبساط معهم في طعامه وانعامه عليهم بجمعهم، ومحافظة والتزام للطهارة والصلاة، وبدار لدفع الواجب من الزكاة في حين وجوبها دون تأخير. قال عبد الملك: وكان هذا الشيخ الحسيب الفاضل أبو عبد الله يخرج في بعض أيام ولايته لغرناطة مع أصحابه الحفاظ النبهاء من الموحدين، أكرمهم الله، وفيّ خاصية، وينزل على ساقية، بقرب قرية نزقر[3]، من نظر غرناطة على ضفة نهر، أحسن من شاد[4] نهر، تحفها

- ابن صاحب الصلاة، ص 151 - 317 - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب جزء ثان ص 187 - ابن خلدون، المجلد السادس ص 500 - 501

(1) كتاب الموطا الذي صنفه ابن تومرت عبارة عن الأحاديث النبوية التي وردت في موطا مالك بن انس برواية أبي زكريا يحيى بن عبد الله المخزومي، وذلك بعد حذف معظم الأسناد منها للاختصار. وقد نشرت موطا المهدي بن تومرت مطبعة بالجزائر سنة 1903، وبالخزانة العامة بالرباط نسختان من هذا الكتاب راجع أيضاً التعليق رقم 1 ص 162

(2) أنظر التعليق رقم 3 من صفحة 161.

(3) قرية نزقر من نظر غرناطة، ولم نرد ضمن قُرى غرناطة التي ذكرها ابن الخطيب، كما لم نرد عند (Simonet) في كتابه (Desc Del Reino de GRANADA) وقد ذكر لي الدكتور (Luis Seco de LUCENA) أن المكان يقصد به غالباً حوش البكر (BUCOR)، الذي يقع شمال غربي غرناطة.
أنظر الاحاطة في أخبار غرناطة - نشر عبد الله عنان صفحة 133.

(4) موضع بنيسابور أم بلاد خراسان. معجم البلدان، مجلد 3 ص 305.

جداول كالصلال، ولا تكاد ترمقها الشمس من تكاثف الظلال فيستريح فيها وقد أحضر له من الشراب والطعام، ما كفا جملته وآنسهم بشرط الاكرام والانعام، وبسط نفوسهم بتقريبه لهم في ذلك [153] المقام، ثم ينصرفون معه وقد حازوا منه من المجالسة والموانسة خير حُرْمَةٍ وذِمَام. فلما مشى من غرناطة لزيارة أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين على ما ذكرته خرجت إلى ذلك الموضع متطلّعاً، وشيّقاً إلى من كان فيه بالأمس مجتمعاً، وتذكرت حسن المعاهدة، والتأنس بتلك المشاهد، فارتجلت[1] فيه: (طويل)

عَهِدْتُك ياذا المنزلَ الرحبَ منْزِلاً ... لسيّدنا نِلْ أفضلِ العصْرِ أجْمعا
تَحُطُّ بك الآمالُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... ونَشْربُ فيك الأنْسَ مثْنى ومَرتَعا
ويحضُرك الأفضالُ منّهُ يَوْمَنا ... فلِلّه ذاك اليومُ مرأى ومَسْمعا
فها أنتَ هَذا اليوم أوْحشُ مَنْزِل ... رأيناك بيداءً وقفراً وبلْقعا
طمِعْتُ بنَفْسِي أنْ أردَّ دُمُوعَها ... فَمَهْمَا زجرتُ العيْنَ أسلَتا[2] مَعا
وقالتْ: دعِيني أسْبِلِ الدّمْعَ ساعةً ... ففيه شِفاءُ القلْبِ إذْ كان مُوجعا
فامهلتُها حتّى اشتفَتْ من بُكائها ... وناجيْتُ ربّي معلنا ومُسْمِعا
بأن يَعْطِف الأيام في وصْلِ ما مضى ... ويرجع لي الواشي خديماً وطيّعا
ويصْبِح مولاي الهُمَامُ مُمَلّكاً ... بقصْرِ ابن بادبسٍ[3] صحبحاً مُمتّعا

(1) الشعر الوحيد الذي نعرفه - في هذا السفر - لابن صاحب الصلاة، وقد ذكر أنه كان في جملة من أنشدوا الشعر في جبل طارق وإن كان لم يثبته، هذا وقد ساق له ابن عذاري قطعة شعر لا شك أنها كانت ضمن السفر الثالث. البيان المغرب ورقة 108

(2) فيه التفات إلى قول الصمة بن عبد الله من شعراء الحماسة (باب النسيب)
بكتْ عيني اليُسرى فلما زجرتُها ... عن الجهل بعد الحلمِ أسلتا معا
وسرات باقي القصيدة مأخوذة من قول الصمة أيضاً

(3) هو باديس بن حبوس صاحب غرناطة سابقاً، وقد كان له بها قصر كان استقر به - فيما نظهر - أبو عبد الله بن أبي إبراهيم أيام ولايته لغرناطة وفي أثناء زيارتي لغرناطة أوقفني الأستاذ برمودث (BERMUDEZ) مدير آثارها على المكان الذي يظن أنه كان قصر ابن باديس وهو جوار القصبة الحمراء، وبما أنه في منطقة تقرر الآن القيام فيها بحفائر، فإن الأمل أن يعثروا فيها على بقايا هذا القصر.

وكان بعد ذلك رجوعه إلى غرناطة على ما دعوت وزحرت، وانصرف إليها والياً في سفرة غزوة السيد الأعلى المجاهد المرحوم أبي حفص ابن الخليفة رضي الله عنه في عام خمسة وستين وخمس مائة على ما تقدم في التاريخ في هذا الكتاب. وكان حين وصل مدينة اشبيلية والياً عليها على ما تقدم [154] في التّاريخ من هذا الكتاب الذكرُ به وشرحُه قد كتب له الكاتب أبو القاسم[1] المواعيني مهنئاً نثراً ونظماً وهو هذا:

مَحَلّ الشّيخ الأجل، الحَبيب المبارك الأفضل، في ذُرَى السيادة، وفروع البركة المَقْرُونة بالسّعادة، محلٌ لا يداني سموه الأسنَى ونُمُوُّه الأبْسَق، وكيف لا وشيخُ الموحدين، وطائفة الحق المهتدين، الأزْهَد الأورع، وعلمهُم الذي لِعِلْمِه النّورُ الأسْطع، أبو إبراهيم أبوه: أصفى الله عليه ظلاله، وأوْسَع في منازل الزلفى مراتبه وحلالَه، هو قعدُدُه الشّامخ، ومستَنده الباذخ وحق لكل فائز بدُعائه، أن يُهنأ بما فتح من استدعائه، فكيف انه الأنجب الذي[2] تغيب عنه آثار بركاته ولا تحجب، وقد تعيَّن على كل متيمِّن بتلك المناجح حقها الأوجب. (وافر).

محمدُ يابن اسماعيلَ انتُمْ | لهذا الأمْرِ قطب أو عِمَاد
أخٌ لبني الخلافة صنْوُ صدْقٍ | ولو سكت الوَرَى نَطَقَ الجَمَادُ
وذُو الحسب الكَرِيم لَهُ فَعَالٌ | يفوقُ النّحْرَ ان نصبت بِماد
وذُو الأملِ المغرّب إذْ وليتم | أناف لَهُ عَلَى الأملِ اعتِمَاد

- ابن الخطيب: اعمال الأعلام، ص 230 ـ الاحاطة ص 452.
دائرة المعارف الاسلامية (ثان) ص 267 ثامن 86
راجع التعليق رقم 2 صفحة 125.

(1) هو محمد بن ابراهيم بن حيرة من أهل قرطبة وسكن اشبيلية يعرف بالمواعيني ويكنى ابا القاسم ... وعني بالآداب ركتب للولاة وله تأليف منها الوشاح المفصل، وريعان الشباب وكتاب في الأمثال توفي في نحو السبعين وخمسمائة، ابن الأبار ـ التكملة لكتاب الصلة (نشر كوديرا) رقم 563

(2) سقطت هنا دون شك كلمة (لا) من النسخة.

وقد احييتُمُ سَنن المَعَالِي | إذا ما كان للمَجْدِ انْهِمَاد

والسُلام الأكرم الأدْوم على حضْرة الشيْخ الأجل الموقر المعظم أبي عبد الله ورحمة الله تعَالى وبركاتُه مِنْ ملتزمِ أمْرِهم، [155] ومعظم حقّهم رهين شُكْرِهم: مُحمّد بن إبراهيم.

الاتفاق على أن يكتب الأمير الرضى أبو يعقوب يوسف بن امير المؤمنين الخليفة رضي الله عنهما العلامة المباركة هي:

والحمد لله وحده بخط يده[1]، وتنفذ الأوامر العلية ببركتها عن أمره وحده

ولما كمل هذا الاتفاق المبارك من الموحدين ـ أعزهم الله ـ أمر الأمير الرضى بكتب رسالة إلى جميع البلاد بالعدوة والأندلس يأمر فيها بالعدل والنهي عن المنكر وكتب بها أولاً إلى أخيه السيد أبي سعيد وهو مقيم بقرطبة وتاريخها يوم الجمعة الثالث من شهر رمضان المعظم من سنة إحدى وستين وخمس مائة، وهذا نصها؛ وأمره أن يبعث منها نسخاً إلى البلاد. فوصلت نسخة منها إلى اشبيلية وهي هذه وهي أوّل[2] أوامره العالية من إنشاء أبي الحسن بن عياش:

بسم الله الرَّحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم والحمد لله وحده، من أمير المؤمنين يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدّهم بمعونته إلى الشيخ الأجل أحينا الأعز علينا، الأكرم لدينا، أبي سعيد وأصحابه الطلبة الذين بقرطبة أعزهم الله، وأدام كرامتهم بتقواه. سَلامٌ عليكُمْ [156] ورحْمَةُ الله تعالى وبركاتُه، أمّا بعد فإنا نحمدُ إليكم الله الذِي لا إله إلاّ هُو،

(1) راجع التعليق رقم 5 ص 78.

(2) رسالة هامة إذ تتضمن المسطرة التي يسعي على القضاة والحكام أن يسلكوها في الأحوال الجنائية على عهد يوسف. راجع ص 151 من كتاب ابن القطان. نظم الجمان تحقيق الدكتور محمود علي مكي.

ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلّي على مُحمّد نبيه المصطفى ورسوله، ورَضِي عن الامام المَعْصُوم، المهدي المعلوم، نحله وسليله، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والدّاعي إلى سبيله، وانا كتبناه إليكم - أكرمكم الله بتقواه وكلأ جانبكم وحماه - من حضرة مراكش، حرسها الله، والذي نُوصيكم به تَقْوَى الله تعالى والعملُ بطاعته والاستعانة به، والتوكُّلُ عليه، وموالاة شُكْره على ما هدى إليه أولياءَ أمْره وأنصار دَعْوَتِه وحُماة كَلِمَتِه من صرْفِ أعنَّة المحبة والاهْتِمَام، وإحكام مرابر الأحكام فيما وكَّله إليْهم من أُمُور الإسْلام، إلى أنْ تَجْرِيَ عَلَى السَّدَاد، وتتّسق على سَبِيل الرُّشاد وتَسْتَقيم على المَهيع، وتمضِي عَلَى المهيع، ونَسِير في الواضح، وتهدي على اللاّحب، ويسلك بها في الحذَو الذي من سلكه أحمدت منه الآثار، وأمن عليه العثار، وارتضى له الايراد والإصدار، فيكون العمل فيها على اليقين الهادي إلى الصراط المستبين، المأمُون في سلوكه من المزلّة والضّلال، المرجوّ في الاهتداء به حُسْن العاقبة وصلاحُ الحال، فنساله - تعالى جدُّه - عوْناً من قبله على هذا الغرَض العام الجدوى يصاحب، وتَوْفيقاً من لدنه في هذا النظر الشّامل المنفعةِ يجاور ويصاقب، وإنّه - أدَام الله [157] كرامتكم - لما كانتْ مباني هذا الأمر العزيز - أدامه الله على التقوى مُؤسَّسة، وأوامره ونواهيه على أمْر الله ورسوله جارية مترتبة، والبها في الأخْذ والتَّرْك مستندة، ومقتضياتها في جميع الأحكام آخذة عاملة، إذ هي نورُ الحقِّ وبرهانُه، وعمُود الصّدق ومعراجُه، وسَبِيلُ الفوْز ومنهاجُه، ورائدُ الثواب وبشيره، وقائدُ العقاب ونذيره، ممّن ائتمّ بكتاب الله الذي هو الإمامُ الهادي، والحق الواضح البادِي، وسنّةُ[1] رسوله صلى الله عليه وسلم التي جَعَلَ العَمَل بهَا كالعمل

(1) يستشف من الرسالة أن الاعتماد على الكتاب والسنة وحدهما ظل مشغلة الموحدين من الأب الى الابن الى الحفيد، ولا يخفى أن الأمر بتحريق كتب الفرع كان صدر من عبد المؤمن سنة 550 كما يقول صاحب القرطاس، أو من يعقوب المنصور كما يقول صاحب المعجب، ومن خلال هذه العبارة بل ومن ثنايا هذه الرسالة سنرى أن يوسف يهيب بالناس ألا يحكموا بهادٍ من الرأي أو عا يظهر.....
الاستقصا ثان ص 112

بكتابه، والوقُوف عند حدِّها كالوقوفِ عند حدِّه، أمِنَ من الغَوائل في العاجل والآجِل، وبَلَغ من السّلامة في الحالَيْن إلى أقْصى أمَلِ الآمل، ولم يُوجد للنّاظر إليه سبيلاً ولم يتَمكّن للشيطان أنْ يجِدَ في تضليله واسْتهدائه صرفاً ولا حَوْلاً فتوفّرت الدّواعي على الدُّعاء اليها، وحَمْل الكافّةِ عليْها، وأخذ الجميع بما يفقهم لديْها وقدْ أمر اللهُ تعالى مَن أمر الناس بِطاعَته أن يحكُمُوا بالعدْل، ويضعوا للعباد مَوازين القسْط فلم يكُنْ بُدٌّ من امتثال أمْره، والاستناد إلى حُكْمِه، وكانت الوُجوه التي تُفْضي إلى الحقِّ في فصْل قَضايا العباد متفقة، والطرق المؤدية إلى معْنى الصّدق ومَعْناه ملتبسة متشعّبة، فَخرجَ فيها بنيات تخطّي الصراط المستقيم وتصل الضّلال البَعيد، فصارَ [158] إمْضاؤُها عَنْ غير استناد إلى هذَا الهدي المتبُوع، والعَلَم المرفوع، خطراً على ممضيها، وإنفاذُها على غيْر هذا السنن غَرراً على منفِّذيها. ولما كان الأمْرُ كذلك تعيَّن ووجب، وثبت وترتَّب، أن نخاطب جميعَ عُمال بلاد الموحدين أعزّهم الله شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، خطاباً يَتساوى فيه جميعُهم، ويتوازى في العمل فيه كافّتهم، بالا يحكموا في الدماء حكماً من تِلقائهم، ولا يمضوها باذٍ أو برأي من آرائهم، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم، ويتقرّر فيما يرونه لديهم، إلا بعد أن ترفع إلينا النازلة على وجْهها، وتؤدّى على كُنْهها وتشرح حسب ما وقعت عليه، وتنهي بالتوثّق والبيان على ما انتهتْ إليه، وتقيّد بالشُّهود العُدُول، المعْرُوفين في مواضِعهم بالعدل والرضى الموجبَيْن للقبُول، وتكتَب أقوال المطلوبين وحُجَجهم وإقرارهم واعترافُهم، وحُجَج الطالبين في مقالاتهم، واستظهارهم في بيّناتهم، مُعْطي كل جانب حقه، مُوفي كل قائل وقوله، فتكون مخاطبتكم - أعزكم الله - ومخاطبة مَن يتناوَلُه هذا الكتاب، ونوجّه إليه هذا القصد، خطابَ من تحمل الشهادة، ويؤدي فيها الأمانة، على ما يجب من البيان الذي لا يعتَوره النباس، ولا يطمس وجهه إشكال، ويتوثقون في المطلوبين بالدماء بسجنهم وتثْقيفهم، ويتوكّفون ما تصِلكم به المخاطبة فتقفون [159] عند مقتضاه، ولا يعدلون عن شَيْء من معناه، مراقباً كلٌّ منكم إلاهه ومولاه، عالماً بأنه يعلم سره ونجواه، وانه يسمعه ويراه،

واعلموا ـ وفقكم الله وأسعدكم ـ أن هذا الحكم عامٌ في سائر النوازل التي أطلقت السُّنة فيها القتل وسنّته، وحكمت بِهِ وشَرْعته، كمن قَتَل نفساً وأقرّ بالقتل، أو شهد العدول عليه به، ومن بدَّل ديناً وارتدّ عنه، ومن أتى الفاحشة بعد الإحصان باعترافٍ أو دليل أو شهادة مقبولة، وما خُيِّر الأيمةُ فيه من قتل المحاربين والسّاعين في الأرض بالفساد، والمتأوّلين أمْر الله بالاشْتهراء والعناد، سواء من ذلك كله، أو وقع فيه ضرب بشكله، فمجراه واحدٌ في التوقف عن إمضائه، والتأخر عن تنفيذه إلاّ بَعْدَ المُطالعة، وتعرُّف وجْه العمل من المُجَاوبة، وكذلكم ـ وفقكم الله ـ يكون التُّوفيق فيما عَدَا المذكور من النَّوازل الَّتي تكُون أحكاماً دُون النفوس من قتل الخطأ وديات الشجاج[1]، وعقول[2] الأعضاء وأروش[3] الجراحات، ووجه القصاص، والقطع في السرقات، إلى غير ذلك من القَضَايا المشكلة في الأموال واطلاقها واسْتِحْقاقها، وفي الرِّقاب وإعْتاقِها واسترقاقها، وملتبسات المناكحات والمعاملات، وما أشبهها من الأمور التي الإقدامُ على الحكم فيها تهجُّم، والعملُ فيها بغير استنادٍ إلى ما يجبُ تسوُّر. فتوقَّفُوا ـ أعزَّكم الله ـ عن جميع ما فسّر لكم ولواحقه توقُّفَ السّاعي [160] في نَجَاتِه، العامِل لدُنياه وآخرته، فقد وردَ في كتَاب الله تَعَالى وسنة رسوله عليه السَّلام من الحَظْر الوَكيد، والوعيد الشديد، في إراقَةِ الدِّماء، واسْتباحة الأموال، واستحلال المُحرَّمَات، إلا بوجْهٍ صحيح لا يسلم إلاّ من طريق العصمة، ولا تهتدي إليه إلا أنْوارُ الحكمة، ما يَرْعُ العُقَلاء، ويكفّ الألباء، ويحذرهم من سطو الله تعالى وعقابه، ويخوفهم من أليم عذَابه، فعولوا على مَا رسم في هذا الكتاب من التعريف بما يَطْرأ، وأنْهاء كلّ ما ينْزِل، ليصلَكُم منَ التّوقيف، والبيان والتّعريف، لما يظهر لكم بِهِ بركة الاقْتِداء، وتُشرق منْه عليْكُم أنوارُ الايتام

(1) الشجاج جمع شجة الجراحة في الوجه أو الراس
(2) عقول جمع عقل بمعنى الدية تسمية بالمصدر لأن الابل كانت تعقل بفناء ولي القتيل ثم كثر الاستعمال فأطلق العقل على الدية ابلا كانت أو نقداً
(3) الارش دية الجراحة وجمعها أروش وأصله الفساد يقال أرش بين القوم تاريشا إذا أفسد

والاهْتِداء، ويتراءى لَكُم بِهِ الحقُّ في صُوَره الصَّادقة، ومُثُله المُطَابِقَة، ومناظره الموثقة، ومَطالِعه المُشْرِقة، بفضل الله ورَحْمَتِه، وملاكُ ما يسدِّد مقاصدَكم في جَميع أحْوالكم، ويوجِبُ لكم الرِّضا في كافَّة أقوالكم وأفْعَالِكُم، تقْوَى اللهِ في السِّر والجهر، وخيفتُه في الباطن والظاهر، وقمع النَّفس عن هوَاها، وكبحها بلجام النُّهي عن الركْض في مَيْدان رداها، وطاعة أمره ـ العظيم، والجَري على سننه المستقيم، فذلك عصمة مِن الزَّلل، وتوفيق في القَوْلِ والعَمل، بِفضْل الله، وقد وَجَبَ ـ أكْرمكُم الله ـ لهذا الكتَاب بمَا انْطوى عَلَيْهِ من الأغْرَاض الشَّامِلة المنْفعة، العامَّة المَصْلَحَة، أنْ يُعطى حَقُّه من الإشاعة والتَّشْهير، ويَنْهَض مقتضَاهُ [161] إلى الصَّغير والكَبير، ويُجْمع النَّاسُ لقراءته، وتَلقِّي مُضمَّنه، ويساوَى فيه بيْن الغائب والشَّاهد، والبادِي والحَاضِر، باسماع مَن حَضَر، ومخاطبة مَنْ غاب، مِمَّن يَتعلَّقُ سَطرَكُمْ، ويدخُل تحْتَ عَمَلكم، فتوجّهُوا بنُسَخٍ منْهُ إلى كُلِّ جِهَة مِنْ جهَاتِكم، وعَمَلٍ من أعْمالِكُم، ليَاخذَ الجَميعُ بقِسْطِه من المسرة به وتعرُّفِ بَرَكَتِه، واسْتِشْعَار عائدته، وأنسه بِمَا أَمَرَ به هَذَا الأمْرُ العَزيز من إفاضةِ العَدْل، وبَسْط الدَّعة والأمْن، وإقامة أمْرِ الله تَعَالَى عَلَى وَجْهِهِ المُتعيّن، وسننِه الواضح البيّن إنْ شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كُتب في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وستين وخمس مائة.

وامتثل السيد أوامر الكتاب الكريم، ورحل عن قرطبة بعد كمال شهرين من تاريخ الكتاب الواصل إلى مراكش على ما ذكرته[1]

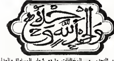
وصل الأمير الأجل الأعدل أبو يعقوب رضي الله عنه بأمره الكريم في هذه الرسالة العلية بالأمر والعدل الأمر الذي بدأه أولاً أبوه الخليفة الرضي أمير المؤمنين رضي الله عنهم في رسالته المشهورة بالعدل والنهي عن المنكر المؤرخة بالسادس عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة[2] التي

(1) وذلك صفحة 149 219
(2) لم تتضمن الرسائل الموحدية التي نشرها الأستاذ بروفنصال نص الرسالة المشار اليها، وكذا...

«الرسالة المشهورة»

كثر الحديث عن هذه الرسالة التي تعتبر بمثابة دستورٍ دأب الخلفاء على ترديده وهي في الواقع نموذجٌ لما كانت عليه «الرسائل البرنامج» - كما أسميها - مما يزود به الخلفاء أمراءهم على الأقطار.

وقد حررت هذه الرسالة في الحضرة العليّة (تينمَلّل) جنوب المغرب بتاريخ 16 ربيع الأوّل 543 (4 غشت 1148) وهي الرسالة التي جعل عليها الخليفة الموحدي العلامة بخطّ يده هكذا



وتتضمن التحذير من المخالفات وترفع شعار المساواة والعدل بين الناس، وتحرم احتكار المراسي واستغلال ظروف المسافرين وتجعل حدّاً لتلاعب البعض بأمر الأسرى، ثم تتخلّص لتحديد واجبات موزّعي البريد (الرقّاصين)، ما لهم وما عليهم .

« . . وتخيّروا لرسائلكم إرسالاً، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالاً، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المجيء والإنصرف ويقطع شأنهم عن التكليف والإلحاف، وارسموا لهم أيّاماً معروفة العدد، معلومة الأمد، ليتهوا إليها إلى مواقف رسائلهم، ويوزّعوها على بمسافات مراحلهم، وحذّروهم من تكليف أحدٍ من الناس ولو مثقال ذرة، وأوعدوا من تسبب منهم بمساءة أو مضرة . . . »

عن التاريخ الدبلوماسي للمغرب
تأليف د. عبد الهادي التازي
المقدمة ج 2 ص 232-233-234 -
مطبعة فضالة 1406 هـ - 1986 م

كتبها في الحضرة العلية تين ملّل[1] حين زيارته قبر المهدي رضي الله عنه إلى جميع الطلبة والأشياخ والعمال من الموحدين [162] ببلاد العدوة والأندلس فاقتفى رضي الله عنه في ذلك أثره، وورث أثره، رضي الله عنهم

(القضاء على تمرد ابن منخفاد في جبال غماره)

وفي سنة ثنتين وستين وخمس مائة[2] تحركت في جبال العدوة فتنة بضلال جهّال من البربر[3] مفسدين ساعين بالفتنة ، وأعظمهم في جبال غمارة[4] المتصلة بسبتة ، فإنه نعق فيها مفسد ضال غوى منهم اسمه سبع بن منخفاد[5] الشقي ، فإنه شق عصا الطاعة ، وفارق الجماعة ، وقطع الطريق ،

- وحدث أن رسالة بتاريخ 27 ربيع الأول تشير إلى «الرسالة ذات الوصايا» فأين هي هذه الرسالة التاريخية؟ من الطريف أن نجدها في نظم الجمان (مخطوط) وأن تكون هي الرسالة الوحيدة التي ذكرها ابن القطان في كتابه المذكور وقد كانت من تحرير وإنشاء أبي جعفر احمد بن عطية في تينملل بتاريخ 16 ربيع الأول سنة 543 . أنظر ص 150 إلى 167 من كتاب ابن القطان . نظم الجمان نشر الدكتور محمود علي مكي وهي الرسالة التي ينعتونها بالرسالة المشهورة

(1) يكتب هنا ابن صاحب الصلاة تين ملل كلمتين، وقد علمت أن الكلمة بربرية، راجع التعليق رقم 1 ص 149.

(2) ابتداء من هذه السنة سنة ثنتين وستين وخمس مائة أخذ ابن صاحب الصلاة يحاول أن يسلك منهج الطبري في سرده للأحداث تحت السنوات

(3) حول نسب البربر وأصلهم انظر ابن خلدون المجلد السادس طبعة بيروت من صفحة 175 إلى 204 الاستقصا، طبعة البيضاء أول ص 60 - 73. دائرة المعارف الاسلامية، المجلد الثالث (عربي) ص 501. C. YVER

(4) تقع جبال غمارة في شمال المغرب جنوب تطوان، وتعتبر جبال غماره من أخصب جبال المغرب ومن الجبال المشهورة، تسكنها قبائل كثيرة من غمارة وبها بسائط كثيرة لا تحصى تستخدم للحرث وكذلك مدن قديمة وآثار كثيرة تنبىء - كما يحكي صاحب الاستبصار - بأن عمارتها قديمة أزلية الادريسي ص 170 - الاستبصار 190

(5) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب جزء ثان ص 185
Mouheras, le Maroc inconnu Tome I page 352

وفرق الفرق، وأدخل في قلوب الناس القاطنين بقصر كتامة[1] وبطره الروعَ والفرق، وتفاقم أمره، وتعاظم شره، وامتنع في جبل الكواكب[2] المسامتة للسحاب من غمارة. واستفحل فيه بالإذاية وتمادى على الغواية، في بشر كثير من قبيله، هم من عدم الفهم، كسائمة[3] البُهم، استصحبتهم الجهالة والضلالة، وفشى ضرهم، وساء أثرهم فاتفق الرأيُ السّعيد، والنّظرُ الموفق الحميد، من الموحدين أعزهم الله، أن يحسموا شرّ هؤلاء المارقين الناعقين في الجبال، وشواهق الأدغال، فنظروا في تجهيز عسكرٍ مبارك سعيد من الموحدين أعزّهم الله، تجهز به الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين أكرمه الله إلى بلاد صنهاجة[4] من جهة القلعة[5] [163] حَرَسها الله. وقد كان الشيخ الأجل الموحوم أبو حفص تقدم قبله بمن كان معه من عَساكر الموحدين أعزهم الله في جهة أخرى من بلادهم المذكورة، فلما عظم شر هذا الشقي سبع بن منخفاد أهلكه الله كما فعل، تحرك الأمير الأجل، الرضى الأفضل، أبو يعقوب بنفسه وعساكره المؤيده، ومعه أخوه صفيُّه السيد الأعلى أبو حفص. وأخوهما السيد الأسنى أبو سعيد، رضي الله عن جميعهم، ونهدوا بعساكرهم المنصورة، المظفرة الموفورة إلى جبال غمارة المذكورة، فنازلوا

(1) قصر كتامة: هو الذي يحمل أيضاً اسم قصر صنهاجة أو القصر الكبير وربما عرف بقصر عبد الكريم تسمية له باحد أشياخ كتامة الذين بنوا هناك قصراً لأول مرة ويعتقد بعض البحاث أن هذه المدينة كانت قاعدة رومانية لكن المصادر العربية تذكر أنه في القرن الثاني للهجرة أسست بها قبائل كتامة. الاستبصار، نشر سعد زغلول ص 189 - 190. أحمد المكناسي: خريطة المغرب الاركيولوجية تطوان 1961 ص 20. دوكاستري: فرنسا السلسلة الأولى المجلد 1 ص 174. تعليق 3

(2) يسميه ابن أبي زرع جبل تيزران، وهو محرف عن تازاران بمعنى جبل المنظر الجميل، ويسمى جبل الكواكب لأن قممه تناطح النجوم، يرتفع عن سطح البحر بألفي متر.
الأدريسي، نزهة المشتاق ص 64 - ابن أبي زرع 184 - 185 الاستقصا، جزء 2 ص 132.
Mouliéras, Le maroc inconnu Page 160

(3) اقتباس من الرسالة الموحدية الآتية ص 167

(4) تقع صنهاجة شمال غمارة مجاورة لها. انظر التعليق رقم 1 ص 210

(5) حول القلاع الموجودة بغمارة. انظر المصدر السابق ص 392 - 393 - 399.

فيها الشقيُّ الغوي سبع بن منخفاد في أعلاها، وأحاطوا على أعدائهم في ذراها، وسبوهم واستأصلوهم، وأخرجوهم عن صياصيهم بجبالهم وأجلوهم، وغزوهم غزواً شافياً وفتح الله لهم أرضهم، وأملكهم عقارهم وعرصهم، وقتلوا الشقيّ، وبلغهم الله في أعدائهم الأمانيا[1]، واتصل لهم وبهم الفتح في جبال صنهاجة بالطوع من أهلها والمتاب، وكان الانصراف من الجميع بالنجح وحسن الانقلاب، وسعيد الاياب. ولما كان الإياب من هذه الغزوة المُظفّرة المذكورة أمر الأمير الأجل، الرضي الأعدل، بإعلام الفتح بها بهذه الرسالة، وخاطب جميع الموحدين والطلبة الأشياخ ببلاد العدوة والأندلس بكيفية الغزوة والفتح الشامل، الأتي بكنّه أمل الآمل، ومقتل الشقيّ الغوي [164] سبع بن منخفاد الغماري وصلبه وهي من إنشاء[2] أبي الحسين بن عياش :

بسْم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً والحمد لله وحده .

من الأمير يُوسف بن أمير المؤمنين أيّدهم الله بنصْره وأمدّهم بمعونته، إلى الطلبة والموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بمدينة غرناطة، أمدهم الله بتوفيقه، ووصل كرامتهم بتقواه. سلامٌ عليكُم ورحمةُ الله وبركاته، أما بعد فإنا نحمدُ الله الذي لا إله إلاّ هُو إليكم، ونشكره على آلائه ونعمه، ونمتري بالمحافظة على ذلك سَنِيّ عَطَاياه وجزيلَ قسمه، ونعترف لَهُ بعوارفه الجميلة في إظهار أمره العزيز وإعلاء قدمه، ونصْر لوائه في كل مقام ورفع عَلَمِه، وإن له مع كل متعرّض بالمحادة والشقاق، مُنْطوٍ على المداجاة والنفاق، من وَشيك أخذه، وعاجل نقمه، ما يُوطّئه ممتطَ أنفه ومُمتدّ قِمَمه، ويقف به مما جَنَى من ثَمرة غَرْسِه، وحتى بعمله الذّميم على

(1) كذا في الأصل بالمئات الألف

(2) من أطول الرسائل الموحدية وأدقّها وصفاً، وهي سجل لتاريخ حوادث غمارة، تقع في خمس عشرة صفحة.

نفسيه ، مواقف حيرته وندمه ، كما أن مَن صَدَق في الاعتلاقِ بَحَبْله والتمسُّك بعصمه ، وركَن إلى دراه وآوى الى حرَمه ، فقد أخذ بالوثيق من عُهُود ذمه ، وارتقى في مرتقى فوزه في سَبَبه المتين وسُلْمه ، ونصلي على محمد رسوله ونبيّه الذي ابتعثه بباهر حكمه ، ومعجز كلمه ، فهدى الى نَهْج الحق وأممه ، ودلّ على سَمْته ولَقَمه، وأنارَ برسالته [165] الجَامِعَة ما غطى من غَيَاهب الضّلال وظلمه ، وأبلغها حنيفيةً سمْحةً الى عرب الأنام وعَجَمه ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، شافي الدّين من وَصَبه وألمه ، ومُبريه من عِدَدِ دَائه وسَقَمه ، وهادي كلّ حائر وسادم من حيْرته وسَدمه ، ونُوالي الدّعا لسيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين بمحكم ذلكم المبدأ الشريف ومبرمه، وصامّ شمله ومنتظمه ، ومكمله بما يَحبُّ ومتممه ومنهي دعوته العالية إلى نجد العَالم وتِهَامه ، وواسع البَرايا بعلمه وحلمه وكَرَمِه . والحمدُ لله عوداً بعْد بَدء ، مولى أوليائه ما وعَدَهم من نصْر وتأييد ، ومَولاهُم على الظّهور والاستيلاء ، في القريب والبعيد ، ومُؤويهم من مظاهرته الى الوزر المنيع ، والركْن الشَّديد ، حمداً ينال به من مواهبه كلّ خير عتيد ، ويُوفي على استعدَاد المستمِدّ ،واستزادة المستزيد ،وله الشكر على أن لم يَزَل ينهض حماة أمْرِه العزيز متَى حاولوا فَصْلَ قضية ، ونَهضُوا في سَدَاد ثُغْر وسَداد رعية ، بعَزْمٍ لا يطرف طرفه بذء ، ولا يثْني يده يدٌ مَشُوبَة ، تعريباً بما لأمره العزيز الذي هو ذخيرة الوجود ، وسر البِنَاء المَقْصُود ، ومعْنَى المَقَام المَحْمُود ، ومفهوم الخَبر المنتظر ، والوعْد الموعود ، والذي علم به التوْحيد والإيمان ، وعُرف منه العدْل والأمان ، ونَعلَّم من تعليمه في أي جانب الربح ، وفي أي جانب الخسران من الفلح ، [166] في كل مقام ، والظُّفَر بكلّ مَرام ، والتّوفيق الى ما يعود بالانتظام والالتئام ، وحِفظ دِينه من عَيْث المهج الطغَام ، وحماية سَرحه من ضُعَفاء العقول ، وسُفهاء الأحلام ، مِمَّن دَان بدِينه ، واستَبْصَر بيقينِه ، وأسرى بضوءه ، واستَسقى بسرءه ، فقد فاز قِدْحه ، وأورى قدحه ، واهتدى قايده ودليله ، وانتقع صداه وابتل غَليلُه ، ومن ألحد في آياته ، وكذّب براهينه وبيانه ، فإلى التّباب مثالُه ، وفي الخَيْبة

والخسار حالُه ، ومقالُه وفعالُه ، أعانكُم الله على القيام بما له من واجب الحق ، ووهبكم الإقبال على قبول ما جاء به من الصدق ، بمنه ، وإنا كتبناه اليكم ، كتب الله لكم يسراً ونجحا ، وأسمعكم مدى الأيام نصراً لأولياء أمره العزيز فتحاً ـ من منزل الموحدين أعزهم الله بداخل جبل الكواكب ، والذي نُوصيكم به تقوى الله ، والعمل بطاعته ، والإستعانة به ، والتوكل عليه ، وقد كنّا ، ـ وفقكم الله الى ما يرضاه ، وأسبغ عليكم نعماه ورحماه ـ بما لله علينا من عهد القيام بحقوق هذا الأمر العزيز ، والحياطة لأرجائه ، والذبّ عن حوانبه ، وتجْديد العناية لتصفية مشارعه من الأقْذاء، وتحلية المحوّمين عليها من أهْل الأهواء ، والقصد لما يراه من تذْكير الغافل ، وتبْصير الجاهل، وإقالة العاثر ، وهداية الحائر ، ـ توجَّهْنا لها بالحركة المباركة بنيةٍ خلص لله عقدها وصفا له ـ تعالى جَدُّه ـ مقصدها ، وارتبط [167] للجِهاد في سبيله ميثاقها المذكور وعَهْدُها ، وانبنت على حَسْم الأدْواء النَّازِلَة بهذا المغرب من هذه الفرق التي فارقت الجماعة ، فتفرقتْ بها السبُل والأهواء ، ورمتْ بها في مسافط الفتن الأفئدة الهَوَاء ، واستولى عليها بعمى البصائر والأبصار التلدُّد والالتواء ، فظلّت من عدم الفهم ، كسائمة البهم ، بشراً سُدداً ، لا تميز من غيٍّ رشْداً ولما صَدَقت لها العزائم وشدّت اليها الحيازيم ، ووقَع على قصْدها التّعويل والتصميم ، قابسْنَا بين جهة المرتدين من صنهاجة وغمارة ، فرأينا غمارة ، أو في سراية ، وأبلغ نكاية ، وأفصح عن استصحاب الجهالة والغوَاية ، وأنهم قد فشا ضرُّهم ، وساء أثرُهُم ، وتعدّى أذاهم ، وسَرَتْ عَدْواهم ، وأنهم أوْلى من تُقدم إليهم واعتُزم عليه ، فسطرنا عِنْد ذلكم في تجْهير عسْكرٍ مبارك سعيد من الموحدين أعزَّهم الله صحبةَ الشَّيخ أبي سعيد يخلف بن الحسين ، أكْرمَه الله بتقْواه ، يتوجه به إلى بلاد صنهاجة من جهة القلعة حرسها الله وكان الشيخ الأجل أبو حفصٍ ـ أدام الله كرامته ـ بمَن معه من عساكر الموحدين ـ أعزهم الله ـ في جهة أخْرى من بلادهم ورسم لهم من العمل في تِلْك الجهات ما يُدْرج في طيه بمشيئة الله تعالى من النصر والفتح ، والفلح والنجح ، استخرنا الله تعالى على قصد بلاد غمارة لنوقل جبالهم ،

ودوْس [168] منازلهم وحلالهم وحوْس حلالَ ديارهم ، فنزلْنا بالموحدين - أعزّهم الله وسط بلادهم، فأحْلِ منه الذين يلونه لائذين بالأوعار، مستعصمين بقنن الأحجار ، متوقّلين في الشّعاب . وكنّا عند وُصُولنا الى أوائل بلادهم ، قدّمنا اليهم من المكاتبة ما رجونا به هدايتهم ، وأملنا فيه فَيْئتهم الى الحقّ وإنابتهم ، فلمْ يعرجوا على نصيحة ، ولا أذعنوا للدّعوة ، ولا أرعوا سمْعاً الى موعظة ، وحين قامتِ الحجة عليْهم ، وسقط العذر عنهم ، استخرْنا الله على قصْد الجبل المَعْرُوف بودَكه[1] لاحتلال مَن كان احتله من عمارة ، واثقين بأنه عصمتهم المنجية ، ودرونهم المؤوية ، فتركنا الحمولة والأثقال في المنزل الذى كنّا فيه وهو المعروف بالمزان[2] ، وسِرنا اليهم بالموحدين أعزهم الله متوكلين على الله تعالى ، مستعينين به ، مخلصين له ، فأخْزى الله أولياءه من النصر والتمكين ، على ما عوّدهم ، وعرفهم من عونه وإنْجاده ما لَمْ يزل يعرفهم ، فاقتحموا عليهم في معاقلهم ، ودخلوا اليهم في موضع اعْتصامهم ، فلم يكن إلا كلا ولا[3] ، حتى خلصوا في الجبل إليهم ، واقتحموه - بحمد الله تعالى ومشيئته - في حملة واحدة عليهم ، فاشْرأب المرتدون ارتياعاً ، وتفرّقوا

(1) جبل ودكه : يقع شمال بني زروال، ويرتفع عن سطح البحر بثمانمائة متر، تبلغ مساحة غابته ثمانمائة ألف هكتار. تسيع به عيون عديدة وتسكنه مختلف الوحوش تكتسي قمته بالثلوج طيلة الشتاء، وتوجد بالجبل شعبة تخرج من أسفلها دخان يفسره العلم بأنه من آثار بركان غير أن السكان يسندون ذلك الدخان إلى قبر ملكٍ جان شاباً في روحه فهو يحترق داخل قبره

Mouliers Le maroc inconnu Page 67 - 68 - 75 - 89

محمد البشير الفاسي الفهري : قبيلة بني زروال . نشر المركز الجامعي للبحث العلمي التابع لكلية الآداب الجزء الثاني والعشرون 1962 صفحة 15 - 16 - 17.

(2) المزان، لم نهتد إلى تحقيقه من خلال كتب الجغرافية القدامى ، ولا يوجد له ذكر عند موليراس

(3) يقصد : كالنطق بها كناية عن السرعة، أي ما دخلوا معتصمهم حتى وصلوا إليهم في الجبل واقتحموه عليهم . وقد استعملها مهيار في قوله

يا مَنْ رأى بالـلّوى سُرَيْـقـاً ... تـقـدح مـرآته الجـنـوب

كـلا ولا سـنـتـهـا تـراه ... مـطلع أبـصـرته يـغـيـب

وفي قوله

كـيـف رأيـت الإبـلا ... خـواطـفـاً كـلا ولا

وكذا الحريري في أواسط المقامة التاسعة والثلاثين بقوله «فلم تكن إلّا كلا ولا حتى برزت

في تلك الأعار شَعَاعاً ، لم تمنعهم حصونُهم ولم تنفعهم معاقلُهم الى أن استولى الموحّدون أعزّهُم [169] الله بأعْلَى كلمةِ الحقّ ، وأقبلوا على جَمْع الأنفال ، وضمّ الغنائم والأموال ، وتسنّى فيه من الفتح الميسّر ، والنّصر المؤزر ، وغزوا من غلَب عليه الشّقاء واسْتَولى عليه الحرمان ، إلى ما نفلهم الله فيه من الغنائم الكثيرة ، والأرزاق الواسعة ، ما عظُم مقدارُه ، وجلت مواقعُه وآثاره ، وبشر بأنّ الذي يتلوه ممّا في ضمن الوعد ، وكفالة السعد ، أبهى مطلعاً وآنق مَرْأى ومَسْمعًا ، وأقام الموحدون أعزّهُم الله بأعلى ذلك الجَبَل يومين يتقرّون بقاياهُم ، ويتتبّعُون فلالهم ، ويجمعون أسْلابهم ، ويكوّون فيهم متنسمين من عوائد الله الجميلة نسواسم تكْميل الفتح ، ومستروحين منها استرواح تعميم النصر ، واثقين به ومستندين اليه ، لا رَبَّ غيرُه . وكان ذلك كلّه في الثالث من شهْر رمضان المعظم من سنة اثنتين[1] وستين وخمس مائة ، ولم نزل - بعدما فتح الله من هذا الفتح المذكور ، الذي أظهر الله فيه آياته المؤذنة بالتأييد ، القاضية باسْتمرار النّصْر الراهن العتيد ، الموقظة للنّائمين ، والمنبّهة للغافلين - نَسْتأني بالضّالين من عمارة مواقيت اعْتبارهم ، ومحالّ نشْتهم وادكارهم ، وإن يأخذوا النحوُب أمثالها ، وترقب احتلالها ، أهْبَة حذرهم واستشعارهم ، وأن يكونوا ممن اتّعظ بغيْرهم ، فكانوا نَخْوَة [170] من سلبهم في الهلكة ، وآثارُهم مع ما آثرناه من راحة الموحدين وأجماعهم ، وتفرغهم لوظايف صيامهم وقيامهم ، وأن يكون غزوُهم بعد الفطر على قوة ووفرة ، ونشاط متمكن ، ونَنْتقل بهم منازل تتخلّلُ بهم تِلْك الأوعار بالرِّفق والهُوَيْنى ، وتتدرَّجُ الى قطعها وتَخْليفها بالتؤدة والأناة ، وتتقدم الى حيْثُ ألقى الشيطانُ بركه وحطَّ رحله . وفي أثناء ذلك كانت قبائلُ منْهم تُظْهرُ المَتاب ، وتبدي الفيئة والإياب ، وتلوُذ بأكناف العفو ، وتستمسك بأسباب الصفح ، وتمدُّ يد الضراعة الى الاستقالة ، فنقابلهم بعوائد

(1) نرى أن الرسالة الرسمية تذكر سنة اثنتين وستين وخمسمائة، وهو ما نقله ابن عذاري وابن أبي زرع وابن خلدون، ويذكر صاحب الاستقصا أن ذلك تم سنة 561 ولا ندري مصدره في ذلك البيان المغرب صفحة 27 - القرطاس ثان 185 - العبر سادس 498

هذا الأمر العزيز من إقالة العثرة ، وتجاوز الزلة والسقطة ، وتقريب الأسباب المؤدية الى الاستئلاف ، الآخذة بالأيدي بالتلافي عن مقاحم التلاف . قد حلّ منهم قبائل كثيرة في هذا الأمر العزيز ، وتداركهم من رحمته ما أمّن خوفهم ، ومكن أمنهم ، وكان بونال (1) ونَسويّال من قبائل عمارة المحتصنون بملكة الجبل المشهور بالمنعة ، المعروف بجبل الكواكب الذي هو أشْهَرُها جبلاً ، وأوعرُها مَرْقى ، قد استحكم فيهم الفساد ، وتمكن منهم الارتداد واستشرى ذلك فيهم بغويٍّ منهم يعرف بسُنَيع بن مُنْخفاد ، أشرب وتمكن منه الإرتداد ، فلبّه وخالط إيثار الشُّورة نفسه ، ثقةً بهذا الجبل الصعْب المَوالج ، المُتهَم المَناهج المستغلق المداخل والمخارج ، الذي زَاحَم بمنكبه [171] وتطاول بأنفه ، فلمنكبه العمم الذي لا يُفرع ، ولأنفه الشّمم الذي لا يُقرع ولا يُقدع ، قد أغْواه هو وإخوتُه ، ولفّ قومه مَن يليهم ، واستهوَوْا على مقاصدهم الغوية مُماثليهم ومُحالفيهم وحسبوا أن ما اعتصمُوا به يعصمهم ، وما امتنعوا به يمنعهم ، وأن باب الحوادث عنْهم ناب ، وطرْف الحوادث في محالّ التوصُّل اليهم كاب ، فلجُّوا في طُغْيانهم ، واستمروا على غلوائهم ، وقرعوا مع ذلك أبواب المماكرة ، وسلكوا في سُبُل المُخادعة . ولما تحققوا دُنُوّنا إليهم ومراحمتنا لهم ، أقبلوا يخلطون بالكدر الصّفْو ، ويُسرون في الارتغاء الحسْو، ويتصفون في أقوال يمرون بها حبْل المُطاولة ، ويرفعون بها أسْباب المراوغة ، ليحوزوا بها مأمولهم من الاسْتبداد ، وعرضهم من الامتزاء بأقوال لا محصول لها ولا فائدة وراءها ، مكشوف فيها سرّهم ، متبيّن فيها مكرُهم ، ويظنُّون أن ذلك يُقنع منهم ، ويضْرف عنان العزيمة عنْهم ، وما علمُوا أن هذا الأمر العزيز لا يجوز على نقْده الزّائف ، ولا يستقر على تقْويم

(1) بنال (بالنون) وبيال (بالياء) أخوان من عمارة، تفرع بنال إلى بني زيات وبني سلمان وبني منصور، وتفرع بال إلى بني خالد وبني رزين وإلى بال ينتسب أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد العماري البالي المتوفى سنة 951
ابن القاضي : الجذوة صفحة 261 ـ محمد العربي الفاسي : مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، الكتاني : السلوة أول صفحة 111

عذْله الحائر الخائف ، وأنه على ثقة من الله تعالى بعقب الأيام ، وتيسر المرام ، وتوفيق النقض والإبرام ، وإن من اضطمر فيه على خَبيثة ضَغْن ، أو انطوى فيه على كبيبة غش ، فالعصمة له من كلّ ذلك واقية ، والعزة له دائمة باقية ، ومما أعملوه من حِيَل المخاتلة [172] أن سَعَى في الوصُول إلينا جملةٌ من أشياخهم مع أخٍ لغَويّهم ، وموقد نارهم يعرف بعمران بن منخفاد(1) ، فوصلوا على تأمين يسر لهم مدركه ، وسُهِّل عليهم مسلَكهُ ، فلقوا من التطمين والتسكين ، والتأنيس والتأمين ، وقبول التوبة ، والإغضاء عما فرط من الحوبة ، ما يعقل العقول بعقل وفائها ، ويوفّر على الغرائز ماء حيائها ، وعُرفوا بما لهذا الأمر العزيز من إرادة الخَيْر التام ، والبر الشامل العام ، وأن يكون نهجُ البرية قاصداً ، وداعيهم الى النجاة والحياة واحداً ، لا تتفرّقُ بهمْ السُّبل ، ولا تتطرّق بهم الى ثُنيّاتها الطُرق ، وصمّنوا عن مَن وراءَهم من غويّهم الشقي وأتباعه السلوك على مَدَارجهم ، والجري على مناهجهم ، وأنهم يقتادونهم بزمام الارتجاع ، الى الانقياد والانطباع ، فمضوا على ذلك ، وقد حَسُن فيهم التأويل، والظن الجميل، وعزائمهم على النكث منْبية، وضلُوعُهم على الغَدْر مطوية مَحْنية ، وكان انفصالُهم على أن يحضروا هُم وجميعُ من ورَاءَهم من تابعٍ ومتبوع معنا عيد الفطر بالمحَلّات المنصورة ، فكان وعدُهم كِذباً وبرقهم خلّباً، وانكشف بعد ذلك في الغدْر قناعهم ، وأبدتْ ما تكنه من العداوة جوانحهم وضلاعهم ، واتّضح عندنا ما كانت تمتدُّ اليه آمالهم ، وتُسرع نحوه أطماعهم . وعند ذلك ، في توجيه [173] الموحدين الى جهاتهم الجدّ ، ولم يك لنا من فصْل هذه القضية فيهم بُدّ . فاستخرنا الله على أن وجّهنا لغزْوهم أخوينا أبا حفص وأبا سعيد ابني سيدنا أمير المؤمنين ـ أدام الله علاهم ـ مَعَ الموحدين ـ أعزهم الله ـ ، وسألناه جل وعلا أن ينجز لأوليائه ما وعدهم ، ويحويهم من الظفر بأعدائهم على ما

(1) يتناول ابن صاحب الصلاة بذكر عمران بن منخفاد وعائلته . القرطاس ثاني صفحة 185 ـ ابن خلدون سادس 498 - 580 ـ الاستقصا ثان 132